خطبة: طالوت والطوفان

الخطيب: يحيى سليمان العقيلي

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له نصير المجاهدين وولّي المتقين ،وقاصم الجبّارين والمتكبرين

وأشهد أن نبيّنا محمداً عبده ورسوله سيدُ المرسلين وخاتمُ النبيين وقائدُ الغرّ المحجلين ، صلوات ربّي وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين ومن تبعهم بإحسانٍ الى يوم الدين ،، أما بعد

فاتقوا الله عباد الله " ومن يتق الله يكّفر عنه سيئاته ويُعظم له أجرا" .

معاشر المؤمنين

القصص القرآني يرد في القرآن الكريم للعبرة والعظة ، فهي وأن كانت تتحدث عن مواقف وأحداث وأشخاص وأزمنة معينة ، إلا أن مقاصدها تتجاوز تلك الظروف لتخاطب كل عصر ومصر ، وكل حاكمٍ ومحكوم ، وكل أمةٍ وشعب ، للإتعاظ والإعتبار ، قال تعالى " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111يوسف)

ومن تلك القصص ، عباد الله ، قصة طالوت وجالوت ، والتي حدثت بعد عهد موسى عليه السلام ، حين نُكب بنو إسرائيل بنكبةٍ من أعدائهم ، فأرادوا الثأر والإنتقام ،

وتُستهل تلك القصة بطلب بني إسرائيل من نبيّهم أن يبعث لهم ملكاً يقودهم لقتال أعدائهم ، قال تعالى "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ…"

ولكون نبّيهم يعلم حقيقةَ طبائعهم ، من خور العزائم وضعف الهمم وزيف النوايا ، أراد أن يستوثق منهم " قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ…"

فردّوا بعزم وإصرار " قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا"

وهكذا هي الشعوبُ والأممُ التي تلتهب عواطفها بالشعارات الزائفة والإدعاءات الباطلة ، ولاتستعد للمواجهة بما تتّطلّبه من إيمانٍ صادقٍ وعزمٍ أكيد وإستعدادٍ واجب ، كما هي ، وللأسف ، أمّتنا ، وخلال عقودٍ، خُدّرت بالخطب والشعارات الرنانة والمؤتمرات والمعاهدات والوعود الباطلة تجاه الشعب الفلسطيني المكلوم ، وجراحاته كل يومٍ تزداد وقضيته العادلة تضيع ،،، ونتابع أحداثَ القصة ،

حيث أبلغهم نبيّهم بما يحقق طلبهم ،

"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ…"

وهكذا تتكشّف أسبابُ الخذلان والهزيمة : الصراع على المناصب والألقاب والعصبيات ، وهل خُذلت أمتنا بغير النزاعات والصراعات بين قادتها ، حتى لم تبق دولتين متجاورتين إلا وبينهما نزاعٌ وخلاف ، تطبيقا للسياسة الماكرة للاستعمار " فرّق تسد" وربنا جلّ وعلا يقول "ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " (الانفال)

جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، ما القِتَالُ في سَبيلِ اللَّهِ؟ فإنَّ أحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إلَيْهِ رَأْسَهُ، قالَ: وما رَفَعَ إلَيْهِ رَأْسَهُ إلَّا أنَّه كانَ قَائِمًا، فَقالَ: مَن قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا، فَهو في سَبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.(البخاري)

 عندها أجابهم نبيهم "… قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247 )

وتلك هي شروطُ القيادة الحكيمة : اختيارٌ وفق مراد الله وشرعه ، وبسطةٌ في العلم والفقه والحكمة ، وصحةٌ وسلامةٌ في البدن والحواس ،

ثم أبلغهم نبيهم بما يحسمُ الترّددَ والشك في قلوبهم ، بأن الله سيريهم آيةً ظاهرةً فقال عندها " وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (248)

وبعد تلك الآية الباهرة انقادوا لطالوت واجتمعوا تحت قيادته ، وتأهبَّ هذا الجيشُ للتحرك لقتال أعدائهم ، جالوت وجنده .

وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى ،

وأعاننا على البّر والتقوى ، أقول ماتسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه ، إنه هو الغفور الرحيم .

معاشر المؤمنين

وينطلق طالوتُ بجيشه ، ولحكمته وعلمه بأسباب النصر الذي لايتحقق إلا بقلوبٍ مؤمنةٍ وعزائمَ صادقةٍ وأفئدةٍ شجاعة ، أراد أن يختبر ذلك الجيش ويصطفي منه الصادقون فقط ،

فمر ذلك الجيش بإختبارات عدة وإبتلاءات متوالية ، قال تعالى "فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ .."

تساقط الضعفاءُ وذوو الأهواء وأصحابُ الدعاوى والشعارات وواصل الباقون ، ليواجهوا الإبتلاء الثاني :

" فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ …"

وبعد هذا الإبتلاء الثاني يتراجع ذوي القلوب الضعيفة والنفوسِ الجبانة وضعفاء الإيمان، أمام الألوف في جيش جالوت ، وتبقى الصفوةُ المختارةُ ذوي العزم الصادق والإيمان الراسخ ، قال تعالى "قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ " (249) ، وكان عدد أولئك الصفوة ثلاثمائة وأربعة عشرة مجاهداً ، كعدد الصحابة في غزوة بدر ، صفوة مختارةٌ موفقةٌ من الالاف الذين خرجوا في البداية .

نعم عباد الله وإننا لنرى اليوم في غزة ، ومع معركة طوفان الأقصى ، نموذجاً لهذه الصفوة المختارة : شعبَ غزة ومجاهديها الأبطال ، أقدموا على مواجهة هذا العدو الغاشم بإيمان صادق ، وإعدادٍ جهادي رفيع ، واستعدادٍ عسكري متقن بما استطاعوا من قوة ، يقصر عن إدراكه وفهمه المتخاذلون والمرجفون والمتصهينون ، الذي لم تلجمُهم بقيةُ مروءةٍ وخجل بالسكوت ، لكن فسادَ القلوب وسوءَ الطوية جعلتهم يلوكون أحاديث الإفك تجاه أولئك المجاهدين الأبطال ، وهم يذيقون الصهاينةَ وأعوانَهم ، وللشهر الثالث ، القتلَ لجنودهم ، والتدميرَ لآلياتهم ، والتفككَ لجبهتهم ، والانسحاب لألويتهم ، ومعهم ذلك الشعبُ الصابر المرابط ، الذي أذهل العالم بصبره ورباطه وثباته ، ودعمه للمقاومةِ الشجاعة .

وحانت ، عباد الله ، ساعةُ النصر والحسم ، ولم يتبق إلا اللجوءَ لربّ العزة الغالبِ الناصر جلّ وعلا ، "وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250)

وهذا مايلّح به أهلُ غزة وأبطالُها المجاهدون عباد الله ، ألا نسمعهم يردّدون ايات القران الكريم ؟ ويلهجون بالدعاء لله تعالى بأن يسدّد رميهم ويهلك عدوهم وهم يخوضون غمار المعارك معه ؟

ويتحقق النصر الحاسم " فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)

ويبرز دورُ داود عليه السلام ، مجاهدا ً بطلا شجاعاً يقتل بمقلاعه جالوت ، هذا المقلاع الذي كان أداةَ الجهاد الأولى لفتيان وشباب فلسطين حين بدأوا انتفاضتهم المباركةَ قبل عقود ، والتي أنهت احتلال الصهاينة لغزة ، غزةَ العزة ، وإذا بهذا المقلاع يتحوّل اليوم الى صواريخ تدكُّ مدنَ الصهاينة وتُلجؤهم للملاجيء كالفئران ،

وتأملوا ، عباد الله ، هذه الخاتمةَ لتبوإ داود عليه السلام منزلتي النبوة والملك ، واللتان لم تجتمعا لنسل في بني إسرائيل قط إلا لدواد ثم لسليمان عليهما السلام ،

قال تعالى " وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ .."

نعم عباد الله من يأخذ الرفعة في مقام المقاومة و الجهاد يستحق الرفعة لمقام الحكم والقيادة ، واليوم يسعى المتآمرون على فلسطين ، بعد أن بدت بوادر هزيمتهم العسكرية ، اللعب على وتر من سيحكم غزة بعد الحرب ، يريدون أن يجّملوا من خان الله ورسوله والمؤمنين ، وأضاع حقوق الشعب الفلسطيني ومقدساته بخذلانه وتآمره وخيانته ، يريدون أن يجمّلوه ليتوّلى حكم غزة مع زبانيته الذين يحكمون الشعب بالحديد والنار ، خاب سعيهم وبَطل كيدُهم ، فشعب غزة ، بل وفلسطين كلها ، أدرك اليوم من هم الصادقون المخلصون ، ومن هم الأولى بتحرير فلسطين وقيادة شعبها للعزة والكرامة ،،،

ونختم بما ختم به ربُّنا تلك القصة

"…. وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) .